أمّا سمع مولانا -جلّ وعزّ- وبصره فيتعلّقان بكلّ موجود، قديمـا كان أو حادثًا[1]، ذاتًا كان أو صـفة[2]، وجوديّـة أو ألوانًا أو أكوانًا[3] أو غير ذلك[4].

الثالثة عشر -وهي فـي ترتيب النظم الثانية عشر- ـ الكلام: قال فـي الـمقدّمات: والكلام الأزلـيّ[5] ....

(1) قوله: (قديمًـا كان أو حادثًا) أي لكن تعلّقه بالقديم تعلّقًا تنجيزيًّا قديمًـا، وبالـحادث بعد وجوده تعلّقًـا تنجيزيًّـا حادثًـا، وقبل وجوده تعلّقًا صلاحيًّا قديمًـا علـى ما مرّ عند الـمتكلّمين من أنّ السمع والبصـر لا يتعلّقان بالــمعدوم الــممكن، وأمّـا علـى مذهب الصوفيّة فيتعلّقان بالـحادث قبل وجوده تعلّقا تنجيزيًّا قديمًـا.

(2)قوله: (ذاتًا كان أو صفة) أي فيسمع -جلّ وعزّ- ويرى فـي أزله ذاته العليّة وجميع صـفاته الوجوديّـة، ويسـمع ويـرى مـع ذلك فيمـا لا يزال ذوات الكائنات كلّها وجميع صفاتها الوجوديّة، ولا تفـاوت بـين الــموجودات كلّهـا بالنسـبة إلـى بصـره سبحانه، فكمـا يبصر الـجلـيّ والأجلـى يبصـر الـخفيّ والأخفى، كمـا أشار إليه فـي قوله {الَّـذِي يَـرَاكَ حِـينَ تَقُـومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِـي السَّاجِدِينَ (219)} [الشعراء] أي يراك حين تقوم فـي أيّ وقت من ليل أو نهار، فـي ضياء أو ظلمة، وتقلّبك أي تنقّلك فـي أصلاب الآباء من الأنبياء والعارفين، وأيّ خفيّ أخفى مـمّـا فـي الأصلاب.

(3)قوله: (أو أكوانًا) الأكوان جمع كون، وهو الـمعبّر عنه بالأين، ولـم يثبت جمهور الـمتكلّمين من الأعراض النسبية غيره، وهو أربعـة أقسام: الـحركة، والسكون، والاجتمـاع، وهو كون الـجسمين بحيث لا يتخلّلهمـا ثالث، والافـتراق، وهـو كـون الــجسمين بحيـث يتخلّلهمـا ثالث، وقضيّة كلامه أنّ هذه الأمور الأربعة موجودة، وأنها ترى، والذي عليه الـمحقّقون أنّ الـذي يـرى مـن هـذه الأربعـة: الـحركة والسكون، وأمّا الاجتمـاع والافتراق أمران اعتباريّان لا وجود لـهمـا، فالــمرئيّ الـجسمــان الــمجتمعان أو الــمفترقان، لا نفس اجتمـاعهمـا أو افتراقهمـا. انظر: يس.

(4) أي كالـمقادير من الطول والعرض والعمق.

(5) قوله: (الأزلـيّ) نسبة إلـى الأزل، وهو القِدم -كمـا فـي الـمصباح وتهذيب الأسمـاء-، واحترز به من كلام الله بمعنى آخـر، فإنّـه حادث، فإنّ كلام الله كمـا يطلق علـى النفسيّ الأزلـيّ القائم بذاته تعالـى كمـا فـي حديث: «القرآن كلام الله غير مـخلوق، ومـن قـال مـخلوق فهو كافر بالله العظيم» أخرجه ابن شاهين فـي السنّة عن أبـي الدرداء، يطلق أيضًا علـى العبارات الدالّة عليه الـمسموعة لنـا، كالقرآن والتوراة والإنجيل، ومنه: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْـمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ} [التوبة: 6].

ويطلق أيضا علـى نقوش الكتابة الدالّة على الـمعنى الدالّ عليه، كقول عائشة: «ما بين دفّتَي الـمصحف كلام الله».

ويطلق أيضًا علـى الـمحفوظ فـي الصدور من الألفاظ الـمتخيّلة، كمـا يقال: حفظت كلام الله.

وإطلاق كلام الله النفسيّ القديم حقيقة عقليّة، وإطلاقه علـى ما عداه حقيقة شرعيّة وعرفيّـة، ولـيس حقيقـة عقليّـة، نقلـه فـي الكبيـر عن العراقيّ.. =

هو الـمعنى القائم بالذات، الـمُعبَّر عنه بالعبارات الـمختلفات، الـمباين لـجنس الـحروف والأصوات(1) الـمنزّه عن البعض والكلّ(2)، والتقديم والتأخير(3) ....

= ويطلق القرآن بالاعتبارات الأربعة أيضا:

فمن إطلاقه علـى الكلام النفسيّ: الـحديث السابق، وهو مرويّ عن ابن عبّاس من وجوه فـي قوله تعالى: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ} [الزمر: 28] أي مـخلوق، وبهذا الاعتبار قال الـمالكيّة: من حلف بالقرآن انعقدت يمينه؛ حملا له علـى الـمعنى القديم.

ومن إطلاقه على اللفظ الـمنزّل علـى مـحمّد -صلّى الله عليه وسلّم- للإعجاز بسورة منه، قوله تعالـى: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ} [المزمل: 20]، {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ} [الأعراف: 204].

ومن إطلاقه علـى الـمكتوب: حديث الطبرانـيّ فـي الكبير: «لا يمسّ القرآن إلّا طاهر»، وفـي الـحديث: «لا تسافروا بالقرآن إلـى أرض العدوّ».

ومن إطلاقه علـى الـمحفوظ فـي الصدور: قوله تعالـى: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} [العنكبوت: 49]، فهـو عائد علـى الكتاب، وهو بمعنى القرآن.

والقديم من ذلك كلّه إنّما هو الـمعنى القائم بالذات العليّة، والبواقي دوالّ عليه، حادثة.

(1) قوله: (الـحروف والأصوات) الـحروف أخصّ من الأصوات، ولـمّا كان لا يلزم من نفي الأخصّ نفي الأعمّ ذكر العامّ بعده، وإذا كان كلامه تعالـى مباينًا لـما ذكر فهو معنى نفسيّ، ومثله ثابت فـي الشاهد، فإنّ كلّ من يأمر وينهى ويـخبر يـجد من نفسه معنى ثمّ يدلّ عليه بالعبارة أو الكتابة أو الإشارة، وهو غير العلم؛ لأنّ الإنسان قد يـخبر بما لا يعلمه، بل يعلم خلافه، وإلـى الكلام النفسيّ أشار الأخطل إذ قال:

إِنّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا * جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَيْهِ دَلِيلَا

وقال عمر: (إنّـي زوّرتُ فـي نفسي مقالة)، وكثيرا ما تقول لصاحبك: إنّ فـي نفسي كلامًا أريد أن أذكره لك.

(2) قوله: (الـمنزّه عن البعض والكلّ) أي عن أن يكون مبعّضًا له ألفاظ وأجزاء، بخلاف كلامنا؛ فإنّه ذو أجزاء، فقولنا: (زيد قائم) له جزآن: الأوّل: (زيد)، والثانـي: (قائم)، ويـحتمل أن يكون الـمراد أنّه منزّه عن أن يكون بعضًا من شيء، أو يكون شيء بعضًا منه.

(3) قوله: (والتقديم والتأخير) أراد به لازمهما، وهو: التقدّم والتأخّر؛ لأنّه الذي من صفات الكلام، أي أنّ كلامه تعالـى منزّه عن التقدّم والتأخّر، بخلاف كلامنا؛ فإنّه يقبل ذلك، فإذا قلت: (زيد قائم وعمرو جالس) فالـجملة الأولـى متقدّمة علـى الثانية، والثانية متأخّرة عن الأولـى، ثمّ تنزيهه عن التقدّم والتأخّر لازم لتنزيهه عن البعض والكلّ، فعطفه علـى ما قبله من عطف اللازم علـى الـملزوم.

والسكوت[1] واللّحن والإعراب، وسائر أنواع التغيّرات الـمتعلّق بمـا يتعلّق به العلم من الـمتعلَّقات[2] اهـ.

فكلامه تعالـى ليس ككلامنا فـي كونه بالـحروف والأصوات، والسرّ والـجهر، والتقـديم والتـأخير، وبالعربيّـة أو غيرها من سائر اللغات، بل هو تعالـى موصوف بالكلام القديم الذي ليس بحرف ولا بصوت، ولا يوصف بســرّ ولا بجهر، ولا بغير ذلك من سائر صفات كلام الــمخلوقات، ويعـبّر عـن كلامـه تعالــى بعبـارات مــختلفة، كـالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان[3]، وليست هذه عينَ كلامه تعالـى؛ لأنّها بالـحروف والأصوات ....

---

(1) قوله: (والسكوت) أي وهو ترك الكلام مع القدرة عليه، وإذا كان منزّهًا عن السكوت فتنزيهه عـن الـبكم أحـرى، فقولـه تعالى: {وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًـا} [النساء: 164] ليس معناه أنّه ابتدأ الكلام بعد أن كان ساكتًا، ولا أنّه بعـدما كلّمـه سـكت، وإنّمـا الـمعنى أنّه أزال الـحجاب عن موسى، وخلق له سمعًا وقدرة حتّى أدرك كلامه القديم، ثمّ منعه بعد ذلـك وردّه لـمـا كان عليه قبل سمـاع كلامه، قاله فـي شرح الكبرى، وهذا معنى كلامه لأهل الـجنّة أيضا.

والصحيح أنّ سمـاعه ليس مـختصّا بموسى، وإن اختُصّ باسم (الكليم)؛ لأنّ وجه التسـمية لا يــجب اطّـراده، فقـد شـاركه الـمصطفى -صلّـى الله عليه وسلّم- ليلة الإسراء والـمعراج كمـا اقتصر عليه الوالد -قدّس الله سرّه- فـي أرجوزته إذ قال:

أَسْـــــمَعَهُ مُوسَـــــى بِطُـــــورِ سِـــــينَا وَفَـــــوْقَ عَالِـــــي عَرْشِـــــهِ يَاسِـــــينَا
مِـــنْ دُونِ تَكْيِيـــفٍ كَمَـــا نَسْـــمَعُهُ فِـــي أُخْـــرَى وَكَالرُّؤْيَـــةِ وَهْـــوَ مَـــا خَفِـــي
كَشَـــفَ عَنْهُمَـــا الْغِطَـــا فَسَـــمِعَا كَلَامَــــهُ الْقُــــدْسِي ثُـــمَّ مَنَعَـــا

(2) قوله: (الـمتعلّق بمـا يتعلّق به العلم) الخ، أي فالكلام مساو للعلم فـي الـمتعلَّق -بالفتح-؛ لأنّ من علم أمرًا صـحّ أن يـتكلّم بـه، والـمولـى عالـم فـي الأزل بمـا كان وما يكون وما لا يكون، فصحّ أن يتكلّم بها، وهما وإن تساويا فـي الــمتعلَّق إلّا أنّهمـا مــختلفان فـي التعلّق؛ لأنّ تعلّق العلم الانكشاف، وتعلّق الكلام الدلالة، فيدلّ كلامه تعالـى علـى الواجب وعلـى الـمستحيل وعلــى الــجائز، فمن كشف له الـحجاب واطّلع عليه يفهم منه ذاته تعالـى وصفاته كمـا يفهمـان من قوله: {أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا} [طه: 14] ويفهـم منـه أنّهمـا واجبان لا يقبل واحد منهمـا الانتفاء، ويفهم منه أنّ الشريك عليه مـحال، وأنّ اعتقاد وجوده كفر، كمـا يفهـم ذلـك مـن قولـه: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ} [المائدة: 73] ويفهم منه الـجائزات وأنّها مـخلوقة لله، كمـا يفهم ذلك من قوله: {وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: 96].

(3) قوله: (والفرقان) تقدّم أنّ القرآن يطلق بالاعتبارات الأربع، وأنّ القديم منها إنّمـا هو الـمعنى القائم بالذات العليّة، والبـواقي دوالّ عليه حادثة، ولا يلزم من حدوث الدليل حدوث الـمدلول؛ فإنّ الـحوادث كلّها تدلّ علـى الصانع القـديم وصـفاته القديمـة، ولـذلك ذكر السعد عن الـمشايخ أنّه ينبغي أن يقال: (القرآن كلام الله غير مـخلوق)، ولا يقال: (القرآن غير مـخلوق)؛ لئلّا يسـبق إلــى الـوهم أنّ الـمؤلَّف من الأصوات غير مـخلوق كمـا ذهب إليه الـحنابلة جهلا أو عنادًا، وقد كان السلف يمنعون أن يقال: .... =

وإنّما دالّة على كلام الله القديم[1]، فأطلق عليها (كلام الله) من باب تسمية الدالّ باسم المدلول. انظر بقيّة كلامه في الكبير.

= (القرآن مخلوق) وأريد اللّفظ المنزّل للإعجاز؛ حذرًا من إيهام مخلوقيّة المعنى القائم بالذات العليّة، واختلف: هل يجوز أن يقال: (لفظي بالقرآن مخلوق) ونسب إلى البخاري والأكثر، أو لا؟ لأنّ الخوض في هذه المسألة بدعة؛ إذ لم يخض فيها المصطفى وأصحابه، وهو قول أحمد، واجترأت المعتزلة على إطلاق أنّ القرآن مخلوق، ولم يتوارد إثباتهم ونفينا على شيء واحد؛ لأنّهم يصفون بالمخلوقيّة الألفاظ، ونحن نقرّ بذلك، ونحن ننفيها عن المعنى النفسيّ، وهم لا يثبتونها له، إذ لا يقرّون بوجوده، ثمّ لا نطلق نحن أنّ القرآن مخلوق وإن أريد اللفظ؛ لإيهامه مخلوقيّة المعنى النفسيّ، والإيهام عندهم؛ فلذلك أطلقوا أنّه مخلوق، ومع قولنا: (القرآن كلام الله غير مخلوق) نصفه بأنّه مقروء بالألسنة، مسموع بالآذان، محفوظ في الصدور، مكتوب في المصاحف، ولا يلزم حلوله فيها، كما أنّ النار جوهر محرق في الخارج، ويذكر ذلك باللسان، ويسمع الآذان، ويعرف بالقلب، ويكتب في الصحيفة، ولم تحلّ النار في شيء من ذلك، وإسناد هذه الأمور إلى المعنى القديم مجاز عقليّ من إسناد ما للدالّ إلى المدلول، قاله اللقانيّ في حواشي المحلّي معترضًا قول صاحب جمع الجوامع على الحقيقة لا المجاز، ونقل ذلك في ك، ولعلّه أراد الحقيقة الشرعيّة والعرفيّة، لا العقليّة ولا اللغويّة.

(1) قوله: (إنّما هي دالّة على كلام الله القديم) ظاهره أنّ الكلام القديم القائم بالذات مدلول للكلام اللفظيّ المنطوق به، وهو ما صرّح به السنوسيّ وغيره من المحقّقين، لكن فيه إشكال قويّ، الحقّ ما حقّقه العبّاديّ ونقله الشيخ يس في حواشي الصغرى من أنّ مدلول القرآن وغيره من الكتب السماويّة بمعنى اللّفظ المنزّل ليس هو الصفة القائمة بذاته تعالى، بل مدلوله بعض متعلّقات الصفة القديمة، فهما دالّان اجتمعا في الدلالة على معاني القرآن، وزاد المعنى القديم بمدلولات لا تتناهى؛ لأنّه متعلّق بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات، كالعلم، ولذا قال تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} [الكهف: 109]، {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ} [لقمان: 27] فكلماته متعلّقة بكلامه، وهي معلوماته، وهي غير متناهية، وماء البحر وأقلام الأشجار متناهية، والمتناهي لا يفي بغير المتناهي قطعًا، قال العبّاديّ: وحينئذ يظهر أنّ مدلول القرآن غير مدلول الإنجيل، وهكذا ضرورة أنّ المتعلّقات المدلولة للقرآن غير المدلولات لغيره، فإنّ فيه من الأحكام ما ليس في غيره اهـ. وعليه فتسميته بكلام الله تعالى إمّا مجاز لكونه قصدت به الدلالة على بعض مدلول الصفة القديمة، كما يقال للكلام المترجم به عن كلام السلطان -ولله المثل الأعلى-: هذا كلام السلطان، وكما تقول للمحكيّ في القرآن عن الأنبياء وأممهم الأعجمين: هذا كلامهم، مع أنّه ليس هو كلامهم، وعلى هذا فقول م: إنّه من باب تسمية الدالّ باسم المدلول هو على حذف مضاف، أي باسم دالّ المدلول، وإمّا حقيقة؛ لأنّه منزّل من الله تعالى، ليس من تأليف الخلق، ولا داخلا تحت كسبهم، فتكون إضافته إليه من إضافة المخلوق للخالق تشريفًا، كما يقال للجنّة: دار الله .... =

قوله: (ذي واجبات) جملة اسميّة كمّل بها البيت لاستفادة وجوب الصفات الـمذكورة من قولـه أوّلًا: (يــجب لله الوجود) الخ.

= وقد أشار الوالد -قدّس الله سرّه- فـي أرجوزته إلـى هذين الوجهين فقال:

وَلَـيْسَ نَفْـسُ الْكُتْـبِ الْـجَلِيلَهْ أَوْ مُتَعَلَّقَاتُهَـا الْـجَزِيلَهْ
إِلَّا مَـجَازًا وَهْـوَ وَجْـهٌ نَـاضِرْ وَفِـي الْـمَجَازِ سِـعَةٌ لِلنَّـاظِرْ
كَقَـوْلِ صَـاحِبِ الْـمَلِيكِ اسْـمَعْ كَـلَامْ ذِي الْـمَلِكِ وَهْـوَ مُظْهِـرُ مَعْنَـى الْكَـلَامْ
وَبَعْـضُ مَـنْ يُـحَرِّرُ الْكَلَامَـا يَقُـولُ إِذْ يُـحَرِّرُ الْكَلَامَـا
كَلَامُـهُ صِـفَتُهُ الْقَدِيمَـهْ وَهْـوَ وَلَفْـظُ كُتْبِـهِ الْقَدِيمَـهْ
اِيتَلَفَـا تَعَلُّقًـا وَاخْتَلَفَـا تَعَقُّـلًا وَذَا عَنَـى مَـنْ سَـلَفَا

تعلُّقًا: أي مُتعلَّقا؛ لأنّ متعلَّقهمـا أي مدلولـهمـا واحد.